عمرو موسى يقود العرب

الدكتور عبدالستار قاسم

29/ايار/2001

شاء عمرو موسى أو لم يشأ سيكون اسمه الأكثر ترددا في وسائل الإعلام العربية على مختلف أنواعها. ربما يتردد اسم كل قائد عربي على حدة في وسائل إعلامه المحلية بصورة أكثر كثافة لكنه ليس من المتوقع أن يتفوق في ذلك أي زعيم عربي على مستوى الوطن العربي ذلك لأن رئيس الجامعة العربية محور حركة مستمرة ذات وقع على كل الدول العربية وأنظمتها، ولا مفر من تواجده في مختلف الأمور المتعلقة بشؤون عبر-الدول أو العالمية. دوره متشعب ومتنوع ويطال مختلف نواحي الحياة العربية العامة.

ولهذا هناك من ينتظر من عمرو موسى الجديد ومن يعلق عليه أملا كبيرا في نقل الجامعة العربية من حالة الكساح إلى حالة أخرى تتميز بالحيوية والتأثير الملموس على سياسات الدول العربية الداخلية والخارجية. يتعزز هذا الأمل فيما يلمسه المواطن العربي من تميز في شخصية عمرو موسى. يلمس المواطن أن وقفة موسى أمام وسائل الإعلام تتميز بنبرة وهيئة مختلفة عن تلك التي يلمسها من أي زعيم عربي آخر، ويرى أن حديثه متناسق ومرتب ويخلو إلى حد بعيد من التأتأة. بغض النظر عن الاتفاق معه فيما يقول أو الاختلاف يعطي عمرو موسى الانطباع بأنه واثق من نفسه ومتمكن من موضوعه بجملته وتفاصيله.

يردد الكتاب ووسائل الإعلام أن ملفات كثيرة وساخنة تنتظر عمرو موسى ويتوقعون قدرة كبيرة من جانبه على حلها بما يملكه من مؤهلات وخبرة. إنهم يتطلعون نحو تجذير "التضامن العربي" من خلال حل ملفات خلافية شائكة على رأسها الحالة بين العراق والكويت. إنهم يأملون بأن يكون مصلحا اجتماعيا فذا ينهي الخلافات بين الحكومات العربية ويخفف من حدة التناقضات بين الأنظمة. هذا فضلا عن الأمل الكبير المعقود علية في حشد الطاقات العربية من أجل التوصل إلى حل للقضية الفلسطينية.

مع كل الاحترام للسيد عمرو موسى، آمل أن يأخذ الكتّاب والمفكرين بحلمه ويطلع على ما في رؤوسهم من أفكار. فهناك من يرى أنه إذا كان لجهوده أن تؤول إلى فشل فإن عليه أن يقوم بالتالي:

أولا: أن يعمل مصلحا بين الأنظمة العربية ويكرس جهوده في حل الخلافات العربية-العربية. على مدى عدة عقود والأنظمة العربية أشبه ما تكون بجيران امتلأت قلوبهم غلا وحقدا دونما سبب ظاهر واستنزفوا أوقاتهم وجهودهم في لعنات وتهم متبادلة تنفجر أحيانا في صراعات دموية. فإذا قرر رئيس الجامعة العربية أن ينشغل في إصلاح ذات البين فإنه بالتأكيد سيفني عمره في مهمة لا يبدو أن لها نهاية، وسبقى على متن الطائرة يطوف العواصم العربية متسلحا بجدليات منطقية وآمال مرتكزة على الأمجاد الغابرة وقيم الشهامة والأصالة العربية. أي سيقضي وقتا طويلا في"بوس اللحى" عله يخفف من غلواء الخصام أو يقرب القلوب من الوئام.

من المهم أن يأخذ المسؤول العربي بعين الاعتبار أنه تم (في الغالب) تصميم الأنظمة العربية بطريقة تجعل العرب مشغولين بمشاكل داخلية تستنزفهم. ولهذا لا يمكن أن يكون الدواء بعلاج المظاهر وإنما بعلاج السبب. لن يؤدي علاج المظاهر إلى الشفاء من المرض على الرغم من أنه قد يبدو على المريض شفاء مؤقت، ولا مفر من التشخيص الجيد والصحيح للعلة.

ثانيا: أن ينطلق في مساعيه من افتراض أن الإرادة العربية حرة وأن الأنظمة جميعها تستطيع أن تتخذ قرارها بإرادة حرة. هذا افتراض قاتل لأنه خاطئ. أغلب الأنظمة العربية سيدة (أو بالأحرى مطلقة اليد) على شعوبها من ناحية القهر والكبت والتدريب على العيش المتميز بالقيم الاستهلاكية، لكنها ليست سيدة في تصريف شؤون سياسية واقتصادية وثقافية ذات بعد بنائي استراتيجي لا على المستوى الداخلي ولا على الخارجي. العمل بناء على هذا الافتراض يخون صاحبه لأنه يستهلك جهده ووقته في مخاطبة من يظنهم أنهم أصحاب الشأن وهم في الحقيقة ليسوا كذلك.

ثالثا: أن يجري وراء شعار فضفاض غير معرف مثل التضامن العربي أو العمل العربي المشترك. صك العرب هذين الشعارين للتغطية على عجزهم، أو بدقة أكثر، على عدم السير نحو الوحدة العربية ولو على الأقل تدريجيا. إنهما شعاران يمثلان الفشل، والسعي وراءهما لن ينجب إلا نتيجة من جنسهما. لم تترك الأنظمة العربية الشعارين بدون تعريف عبثا أو جهلا وإنما للتأكيد على عدم فعاليتهما وللاستمرار في الطرق الانفرادية المختلفة التي تطيب لكل نظام. إنهما شعاران براقان يكادان يخطفان الأبصار، لكن العمى يبقى عمى القلوب التي من المفروض أنها تتعلم من تجاربها.

رابعا: الاعتقاد بأن الجامعة العربية لا تقوى إلا بما تمنحه إياها الأنظمة العربية من صلاحيات والاكتفاء بما هو متوفر من ضوابط وأنظمة وتعليمات. لقد تم تقييد الجامعة العربية وأمينها العام بنظم وتعليمات تجعلها شكلا من دون جوهر، ولا غرابة أن الجامعة من أكثر المنظمات العالمية ضعفا. فمن أراد أن يتسلح بأسلحة الإضعاف لا يمكن أن يكون قويا أو يصبح كذلك. من المهم أن يحصل زحف ذكي بطيء وتدريجي على هذه النظم. احترام النظام مهم لكن ليس في بلاد فيها واضع النظام أول من يخترقه. القوانين في بلادنا تُنتهك ليل نهار، والدساتير يتم القفز عنها أو تعديلها حسب المزاج وإلى غير ذلك مما يعرفه القاصي والداني والمتمرس والضعيف. يغير القوي النظم كيفما يرى مناسبا ويبقى المسكين الضحية التي يحاول القوي بعقابها إثبات احترامه للقوانين أمام شعبه. ولا أظن أنه من مصلحة الجامعة العربية أن يكون أمينها العام من الضعفاء المساكين.

خامسا: أن يقتنع بأن السياسة عبارة عن فن الممكن. ابتدع العرب هذا التعريف ليكون نصيرهم في التخاذل ولتبرير عجزهم فلسفيا. فن الممكن معناه أن يرضى المرء بما يُعطى وكأن لا علاقة له هو بصنع الحدث الذي يحسن ظروفه بطريقة تجعل الغير يرضى بما يُعطى. هذا التعريف يجعل الإنسان موضوع الفعل وليس الفاعل وأن عليه القبول بإرادة الغير وليس تحديها.

إذا قيد عمرو موسى نفسه بهذه الأمور فإن فترة ولايته ستنتهي بذات النتيجة التي انتهت بها ولايات أسلافه. قد تصاحب فترته ميزات شخصية متفوقة على ميزات أسلافه لكنها لن تكون ذات مفعول عملي يصنع واقعا عربيا جديدا. أما إذا أراد أن يكون متميزا شكلا ومضمونا وصانعا لعهد جديد فربما يجد من المهم أن يأخذ باعتباره التالي:

أولا: إذا كانت أغلب الأنظمة العربية قد انحنت أمام أحداث كثيرة ولم تستطع المواجهة وفضلت الاستكانة فإنه قد لا يكون لها طاقة على مواجهة عمرو موسى. إذا كان نظام عربي أو زعيم دولة عربية يخشى رأي مفكر أو قائد اجتماعي ويضعه في السجن بسبب ذلك فإنه بالتأكيد يخشى رأي أمين عام الجامعة العربية مع فارق واحد وهو أنه لا يستطيع اعتقاله. من يخشى الرأي لا هيبة له ولا يُحسب له حساب، ومن يظن أنظمة كهذه تخيف شجاعا إنما يقع في الوَهَم.

ثانيا: إذا كان الغير قادرا على فرض إرادته على العرب فلماذا لا يحاول ابن العرب فرض إرادته عليهم؟ صحيح أن الأنظمة العربية أثبتت جرأة في الاقتتال الداخلي والعداوة فيما بينها، لكنه ليس من المطلوب من أمين الجامعة العربية أن يحشد جيوشا لتهديد الأنظمة لكن يكفيه أن يصيغ سياساته بطريقة تحشر الأنظمة غير المتعاونة في زاوية تضعها في حرج أمام جماهير الأمة خاصة أن وسائل الإعلام المتطورة تشكل رعبا للكثير من الأنظمة السياسية في العالم. ومن المحتمل أن يدفع تراكم الحرج الأنظمة إلى التمرد على قوى الهيمنة الخارجية والجنوح تدريجيا نحو اتخاذ خطوات حرة متناسبة مع مصلحة الأمة. أي أن الإحراج ليس بالضرورة ضارا أو أنه ينطوي على مخاطر كبيرة، لكن تطبيقه يحتاج إلى هندسة ماهرة.

ثالثا: من المطلوب أن لا يكون أمين الجامعة العربية أسيرا للقبلية والتراث القبلي في تنظيم المجتمعات، بل أن يكون عنوان جدلياته باستمرار التنظيم الحديث للمجتمعات والدول والقائم على القيم الإسلامية التي تضع الكفاءة عنوانا في تولي المسؤوليات. مهادنة التركيبة السياسية العربية الحالية عبارة عن انحياز للتخلف والهزيمة وغياب الإرادة.

رابعا: من المفروض أن هذه جامعة دول عربية وليست جامعة أنظمة عربية. النظام السياسي أو السلطة عبارة عن جزء من الدولة ومن المفروض ألا يكون هناك انحياز لصالح الجزء على حساب الكل. بمعنى أنه من المفروض أن يتم تحول جذري في تعامل الجامعة العربية مع الدول بحيث يصبح الانحياز لصالح الشعوب. وهنا ترد كلمة الانحياز لأن أغلب الأنظمة ليست تعبيرا عن إرادة جماهيرية حرة وإنما تقف في كثير من الأحيان في مواجهة الشعب وتطلعات الأمة. وإذا أراد أمين عام الجامعة العربية أن يحقق التفافا عربيا حوله فإن ذلك لن يتحقق بالأنظمة وإنما بالشعوب. وبإمكانه أن يغطي سياساته بما ينص عليه ميثاق الجامعة العربية من أهداف ومن ضمنها.

بمعنى أن الأمين العام للجامعة العربية سيبدأ مرحلة عربية جديدة إذا أصر أن عزة الأمة العربية ووحدتها لن تتحققا إلا بالإنسان العربي الحر المنعتق من عوامل القهر والكبت. أي أن بإمكانه أن يعمل على تحرير الإرادة العربية من خلال تحرير إرادة الإنسان. لن تكون الأنظمة العربية سعيدة بهكذا توجه لكن ذلك ليس مهما إزاء مهمة تاريخية من واجب كل شخص عربي أن يسعى إلى تحقيقها. فهل نصنع التاريخ أم نبقى أسرى للعق الهزائم والتراجعات؟

خامسا: الظرف العربي الآن ليس ملائما لحل المشاكل العربية العالقة مع دول أو كيانات مجاورة. إنه ظرف صعب يتميز بالضعف والتشتت والخلافات الداخلية والتبذير والاستهتار بالإنسان، ولن تكون الحلول التي يمكن أن يتوصل إليها العرب إلا مرآة لأحوالهم. أي أن الحل مع الكيان الصهيوني سيكون هزيلا بهُزل الأمة ومختلا بصورة كبيرة لصالح العدو بحسب اختلال ميزان القوى. وإذا شاء أمين الجامعة العربية أن يحقق المصلحة العربية وأن يسترد الحقوق فإنه من المتوقع أن يعطي أولوية لإصلاح وضع الأمة إلى تلك الدرجة التي تجعل تعريف السياسة الإصرار على ما هو ممكن وليس فن الممكن. عندها تستطيع الأمة أن تنتزع حقوقها بدل أن ترضى بما يعطيها إياه الغير.

سادسا: وضع العرب شاذ تاريخيا ومنطقيا من حيث أن موقعهم على الخريطة السياسية العالمية والحضارية متخلف جدا عن طاقاتهم وإمكاناتهم. نحن نعيش اللاتاريخ، وإخراجنا إلى التاريخ يتطلب إبداعا وحلولا غير عادية لما نحن فيه من مشاكل. ولهذا من المطلوب أن يحرر أمين عام الجامعة العربية نفسه من الأنماط التقليدية في التعامل مع الأمور وفي التخطيط واتخاذ القرار، وأن يتحرر من الأنماط الإدارية الاعتيادية لصالح أنماط خلاقة تستطيع استيعاب خطوات وأساليب غير اعتيادية. المتطلبات غير الاعتيادية تتطلب حلولا غير اعتيادية وبالتالي لا مفر من تطوير أطر مختلفة عما هو قائم تقوم على قدرات ذات إبداع خاص.

وتبقى الأمور في النهاية في يد الكيال وخاضعة لمهارته. عمرو موسى يتميز بالمهارة السياسية وعساه يكون عند حسن ظن الذين كتبوا في ولايته وتفاءلوا بالخير. ومن هنا حتى نرى ماذا هو صانع من المفروض ألا نتوقع منه أعمالا خارقة وسريعة، لكن بعض السياسات الجديدة ستضع العرب بالتأكيد على عتبات جديدة. وحتى لا يخرج التفاؤل عن حد الاتزان علينا ألا ننسى أن عمرو موسى من الذين ركزوا على الدور الأمريكي في حل مشاكل العرب، الدور الذي صنع للعرب جزءا من مشاكلهم.